

البصرة ويولّي وجهه نحو بغداد فيمتدح خليفتها الناصر، غير أنه في هذه المرة يوغل في رحلته شمالاً، فينزل في الموصل وسنجار وديار بكر، ويمتدح مراراً بدر الدين لؤلؤاً مدبّر الموصل والقائم على شئونها منذ سنة ٦٠٧ للملكها القاهر بن نور الدين أرسلان شاه. ويمدّ رحلته إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل الأيوبي صاحب حرّان وديار الجزيرة. ويعود إلى دياره وموطنه فيجد أميرها الفضل قد أفسد أداة الحكم فيها إفساداً لا يمكن إصلاحه، إذ قرّب منه جماعة من غير أهل بيته اتخذهم حاشية له، فاتفقوا مع رؤساء قبيلة بني عقيّل أن يعصفوا بالبلاد عصفاً، حتى إذا استشارهم الفضل أشاروا عليه أن يحكّمهم في أملاك أقربائه يأخذون منها ما شاءوا. وحاصروا الأحساء وأفسدوا ثمارها وزروعها. ونزل الفضل على مشورة حاشيته، فملك البدو من بني عقيّل البساتين ظلماً، وصار الرجل من أهل الأحساء يضطر إلى بيع البستان الذي تبلغ قيمته مائتي دينار بدينار واحد أو دينارين أو ثوب أو بجزور وما أشبه ذلك. ويأسى ابن المقرب لما أصاب الأسرة والدولة ويرى فيه نذيراً بانتهاء أيامها، ويصوّر أساءه وحزنه في نونية، يقول فيها وقد أمضه الأسى وأوجعه الحزن الشديد:

يأليت شعري أيّ الذنب كان لنا حتى به اجتبيح دانينا وقاصينا  
أضحت بساتيننا نفدي بأحسنها شقصاً لأدنى تحسيس من موالينا  
بجلة التمر والشاة الرعوم غدت أملاكنا واحتمت أملاك عاديننا  
إننا إلى الله لا أرحامنا نفعت ولا طعان حمة القوم يحميننا

والشقص: الشيء اليسير. وجلة التمر: وعاءه. والشاة الرعوم: الهزيلة. وهو يبكي اجتياح أموال عشيرته من العيونيين، ويقول: إن البستان يباع - خوفاً وقهراً - بوعاء من التمر أو بشاة هزيلة. ويسترجع، محزوناً، لدولته وأسرته، ويرى نهايتها قد دنت. وفعلاً لا يمضي نحو عشر سنوات، حتى تغرب شمس تلك الدولة وتخلفها دولة من العقيليين، هي دولة بني عصفور.

وواضح أن ابن المقرب دون لنا في شعره وديوانه تاريخ أسرته على مرّ السنين حين حكمت القطيف والأحساء والبحرين الحالية، ولم يترك حادثة مهمة دون